فمن هذا الشخص الغريب؟

أتذكرون ذلك المسكين الذي قدم على رسول الله ﷺ وهو في (قباء) وقدم له صدقة من طعام، فأكل الصحابة منه، ولم يأكل رسول الله ﷺ.. قباء تذكره، وأنتم؟

ها هو يأتي مرة أخرى.. يحمل هدية من طعام تحملها يدان تشققتا من العبودية والكدح والشقاء، وتحمله أقدامه دامية.. عصفتها الدروب والثلوج والرمضاء والرياح، وما إن وقف ذلك المسكين أمام رسول الله ﷺ حتى قال له: (إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه)[1]. فقال ذلك المسكين في نفسه: (هاتان اثنتان)[2] ثم خرج من عند رسول الله ﷺ وهو أحر شوقاً مما كان عليه.. عاد لسيده اليهودي يكدح ويكدح، وينتظر النهار بين نخيل المدينة، فمن أجل النهار جاء.. جاء من مكان بعيد.. جاء سيداً.. جاء مبتسماً وباكياً.. جاء عبداً مقيداً، ولن تضيره أيام قليلة من الانتظار، فربما طلع النهار وانزاح ليله الدامي الطويل.

أما رسول الله ﷺ فمكث ما شاء الله له أن يمكث في ضيافة أبي أيوب، ولم يكن هناك من مسجد للصلاة فـ (كان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم)[3].

لكن المدينة اليوم عاصمة للإسلام، وهي تتسع كل يوم بالوافدين والمهاجرين، فكان لا بد لها من مسجد. حيث لمح رسول الله ﷺ قرب بيت أبي أيوب حائطاً لبني النجار.. لم يرَ رسول الله ﷺ أنسب منه مكاناً لمسجده، فكانت هذه القصة:

قصة بناء المسجد النبوي

لقد جاء الأمر (ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا..؟ فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله عز وجل)[4] و(كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور

---

(١) حديث صحيح سيمر معنا. رواه ابن إسحاق.

(٢) حديث صحيح سيمر معنا. رواه ابن إسحاق.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٢٨).

(٤) حديث صحيح. وهو بقية الحديث السابق.

المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع.

فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضاديته حجارة، فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ يقول:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة»[1]

لم يكن رسول الله ﷺ قاعداً.. يكحل عينيه بمشهد السواعد تشتد أمامه وتعرق، بل كان يعرق مثلهم، ويحمل مثلهم.

لقد ساهم ﷺ في بناء مسجده، وبناء مسجد قباء، كما ساهم وهو شاب في بناء الكعبة في مكة التي طرد منها، وفي المدينة كان الصحابة يتدفقون نشاطاً وبناءً.. هذا عمار بن ياسر رضي الله عنه يتميز عن بقية الصحابة.

يحدثنا عما قام به عمار شاب اسمه أبو سعيد الخدري فيقول: (كنا ننقل لبن المسجد لبنة.. لبنة، وكان عمار ينقل لبنتين.. لبنتين. فمر به النبي ﷺ ومسح عن رأسه الغبار ينفض التراب عنه)[2].

ثم يقول ﷺ وحياً.. يقول غيباً.. يقول: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية.. يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار)[3] أما عمار فكان رغم استبشاره بهذه الشهادة.. يخشى على أمة الإسلام.. يخشى عليها فيقول: (أعوذ بالله من الفتن)[4] ثم ينصرف إلى عمله والصحابة حوله حركة نشطة. هذا أحدهم.. يغوص في الطين بمهارة، ويعالجه بطريقة مدهشة أعجبت النبي ﷺ، فقال لمن حوله ممتدحاً فعل ذلك الرجل الماهر بعمله، الوافد من اليمامة من أعماق نجد ليكتب الله له شرف المساهمة في بناء المسجد النبوي. يقول ﷺ: «قربوا اليمامي من الطين فإنه من أحسنكم بناءً»[5].

---

(١) حديث صحيح. وهو بقية الحديث السابق.

(٢) البخاري ١-١٧٢و ٣-١٠٣٥ أما الفئة الباغية فهي فئة معاوية رضي الله عنه ... والفئة المحقة هي علي رضي الله عنه وأصحابه.

(٣) جزء من الحديث السابق.

(٤) جزء من الحديث السابقه.

(٥) سنده صحيح البيهقي ٢-٥٤٢ وغيره من طرق عن ملازم بن عمرو يمامي صدوق التقريب ٥٥٥ حدثنا =

وتم بناء المسجد كما أراد ﷺ: (مبنياً باللبن، وسقفه الجريد، وعمده من خشب النخل)[1].

لكن ما قصة هذا اليمامي

اسمه (طلق بن علي اليمامي) وهو يحكي قصته ويرويها بنفسه.. يفخر بها وحق له أن يفخر فيقول رضي الله عنه: (بنيت مع النبي ﷺ مسجد المدينة فكان يقول: مكنوا اليمامي من الطين فإنه من أحسنكم له مساً)[2]. ويحكي هذا الصحابي قصة قدومه فيقول: (خرجنا وفداً إلى النبي ﷺ، فأخبرناه أن بأرضنا بيعة[3] لنا، واستوهبناه من فضل طهوره، فدعا بماء فمضمض ثم صبه لنا في إداوة، وقال: اذهبوا بهذا الماء، فإذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم[4]، وانضحوا مكانها من هذا الماء، واتخذوا مكانها مسجداً فقلنا: يا نبي الله.. إن البلد بعيد والماء ينشف. قال ﷺ: «فمدوه من الماء فإنه لا يزيده إلا طيباً»

فتشاححنا على حمل الإداوة أينا يحملها؟ فجعلناها نوباً بيننا لكل رجل يوم وليلة، فلما قدمنا بلدنا فعلنا الذي أمرنا، وراهبنا ذلك اليوم رجل من طي، فنادينا للصلاة، فقال الراهب: دعوة حق ثم هرب فلم يرَ بعد)[5] هذا ما حدث في أرض اليمامة أما في المدينة. فبعد أن تم بناء المسجد وعُمِّرَ بالصلاة والحياة وضع لرسول الله ﷺ جذع نخلة يخطب عليها، لكن الوفود تكثر كل يوم، والمهاجرون يزدادون، والناس تريد أن تستمع إلى خطب رسول الله ﷺ.. إلى وحي ربها، فلا بد من بناء منبر مرتفع يمكن الحاضرين من الاستماع والرؤية. وافق ﷺ على هذا الاقتراح، لكن شيئاً حدث فأحزن من في المسجد وأبكاهم.. شيء غريب ومؤثرٌ حقاً.

= عبد الله بن بدر ثقة التقريب ٢٩٦ وشيخه قيس ابن الصحابي طلق تابعي ثقة التقريب ٤٥٧ وقصته عند الطبراني ٨-٣٩٩ وابن حبان ٣-٤٠٤ بالسند نفسه.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي ٢-٥٤١.

(٢) سنده صحيح. وهو من السند قبل السابق.

(٣) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٤) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٥) هو باقي الحديث السابق الذي رواه النسائي والبيهقي وابن حبان وهو صحيح.

عند صنع المنبر

أحد الذين حضروا تلك الدموع.. صحابي اسمه: (سهل بن سعد) الساعدي رضي الله عنه يقول: (كان رسول الله ﷺ يقوم إذا خطب إلى خشبة كانت في المسجد، فلما ذاع الناس وكثروا قيل له: يا رسول الله لو جعلت منبراً تشرف على الناس منه؟

فبعث إلى النجار فانطلق، فانطلقت معه حتى أتى الغابة، فقطع منها أثلاً فعمله وهيأه، ثم أتينا نحمله، فكان «درجتين» والثالثة مقعد لرسول الله ﷺ. فوالله ما هو إلا أن قعد عليه رسول الله ﷺ فتكلم، وفقدته الخشبة، فخارت كخوار الثور لها حنين حتى فزع الناس، وكثر البكاء مما رأوا بها، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «سبحان الله ألا ترون إلى هذه الخشبة»)[1]. (فنزل رسول الله ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت)[2] كأن هذا الجذع متفرع من جذور الحب.. كأنه أحد المهاجرين والأنصار.. كأنه مكة.. مكة التي تفتقد إلى وجه ابنها وحبيبها ﷺ.. كأنه تلك الحجارة في مكة التي كانت تسلم عليه ﷺ كلما مر بها، وتبادله حباً بحب، وشوقاً بشوق. هذا الجذع بكى لأن رسول الله ﷺ لن يخطب عليه بعد اليوم.. لن يحظى بدفء جسده بعد اليوم، وسوف يفتقد إلى ذكر الله يفوح عطراً وهدايةً من رسول الله ﷺ، لقد عبر عليه السلام عمَّا بأعماق هذه الشجرة عندما قال: (بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها)[3] إنها تغبط:

امرأة من الأنصار وغلامها تبرعا بالمنبر

فالأنصارية هي التي تطوعت وغلامها لبناء المنبر.. يحدثنا عن ذلك أحد كرام الأنصار: جابر بن عبد الله فيقول: (إن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، ألا أجعل لك منبراً تقعد عليه فإن لي غلاماً نجاراً؟ فقال ﷺ: «إن شئت».

---

(١) حديث حسن. رواه أبو نعيم في الدلائل (٤٠٣) حدثنا أبو يعلى حدثنا كامل بن طلحة حدثنا ابن لهيعة عن عمارة بن غزية أنه سمع عباس بن سهل يخبر عن أبيه وهذا سند صحيح لولا ابن لهيعة لكنه لم ينفرد فقد رواه البيهقي من طريقين عن أبي بكر بن أويس عن سعد بن سعيد بن قيس عن عباس عن أبيه ٢-٥٥٩ وعلته سعد بن سعيد وحديثه حسن بالشواهد فهو صدوق سيئ الحفظ.

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام البخاري والبيهقي ٢-٥٦٠.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢/٥٦٠).

فعملت له منبراً، فلما كان يوم الجمعة قعد على المنبر الذي صنع له، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل رسول الله ﷺ حتى أخذها، فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت. قال ﷺ: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها»[1] ثم عاد ﷺ إلى منبره.

فماذا صنع

يقول سهل الساعدي: إن المرأة أمرت غلامها (فعملها من طرفاء الغابة، ثم جاء بها فأرسلته إلى رسول الله ﷺ، فأمر بها فوضعت ههنا، ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها، وكبَّر وهو عليها، ثم ركع وهو عليها، ثم نزل القهقرى، فسجد في أصل المنبر، ثم عاد.

فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي، فعمل هذه الثلاث درجات»[2].

إذاً فمنبر رسول الله ﷺ ثلاث درجات.. ثلاث درجات بسيطة لا أكثر، فهنيئاً لتلك الأنصارية.. هنيئاً لغلامها وهنيئاً لذلك المنبر، فمنبر الأثل لم يعد ينتمي إلى الأثل.. لم يعد ينتسب إلى الأرض. منبر الأنصارية صار:

منبراً من الجنة

فقد التفت ﷺ إلى منبره يوماً فقال: «إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة»[3].

وأما ما بين المنبر وبيت رسول الله ﷺ فمساحة من الربيع الخالد والفيض الغامر الواعد بالنعيم. فقد قال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[4].

أما المسجد فقد اكتمل بناؤه، واكتمل العقد بجوهرة ثالثة تزين صدر السفر.. محطة ثالثة لقوافل المؤمنين بناها ﷺ في المدينة.. يزيلون فيها العناء والذنوب،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢/٥٦٠).
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي ٢-٥٥٥.
(٣) حديث صحيح. انظر صحيح النسائي ١-١٥٠ والبيهقي ٢-٥٦٤.
(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ١-٣٩٩ ومسلم ١١٩٥.

وينهلون الأجر والثواب «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس»[1]. لا تشد الرحال من أجل العبادة إلى أي مسجد في الدنيا، إلا إلى هذه المساجد الثلاثة. فمن أتعب مطاياه إلى غيرها، فقد أتعبته البدعة والغلو، والإسلام نبع صافٍ ورقراق، والشيطان يحاول تلويث النية الصافية بالبدعة . لكن لم هذه المساجد بالتحديد هي مناخ المرتحل ومستراحه؟

الإجابة لا تأتي من الهواء.. لا تأتي من الهوى. الإجابة تتنزل وحياً، وتمطر أجراً عندما قال ﷺ: (صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه)[2].

فهم الصحابة ذلك، وأدركوا أن السفر من أجل العبادة والصلاة لا يجوز.. مهما كان ذك المكان المنشود مقدساً، إلا إلى هذه المساجد الثلاثة، حتى ولو كان هذا المكان جبل الطور الذي كلم الله فيه موسى تكليماً، وأنزل عليه فيه التوراة.

هذه قصة حدثت بين صحابيين.. تشهد بتفاني الصحابة رضي الله عنهم من أجل بقاء الإسلام أبيض جديداً دون تشويه أو بدع وذلك عندما (لقي أبو بصرة الغفاري أبا هريرة وهو جاء من الطور، فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور،صليت فيه.

قال أبو بصرة: أما لو أدركتك قبل أن ترحل إليه ما رحلت إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[3] وبهذه التصفية والتربية يبقى الإسلام جديداً.. دون شوائب.. دون بدع، بل كما أنزل على محمد ﷺ.

إذاً فقد سعدت المدينة باحتضانها لمسجد يؤسسة رسول الله ﷺ على التقوى، كما سعدت مكة من قبل بتأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لبيت الله الحرام، وبعد ذلك بنى ﷺ له بيتاً ملاصقاً للمسجد عبارة عن حجرات صغيرة، فسودة قادمة قريباً من مكة، أما عائشة فربما كانت مع هذا الركب الذي يلوح بين السراب، وفيه

---

(١) حديث صحيح. متفق عليه.

(٢) حديث صحيح انظر صحيح الجامع (٢/٧١٤).

(٣) حديث صحيح انظر إرواء الغليل (٤/١٤٢) وقول النبي ﷺ عند البخاري ومسلم.

امرأة شابة حامل.. شابة عظيمة تهاجر للمرة الثانية، وكانت تحمل الطعام إلى رسول الله ﷺ، وتقطع حزاماً لها نصفين ليستخدمه ﷺ في هجرته إلى المدينة، فيربط زاده وما يحتاجه.. إنها ذات التاريخ الأبيض.. ذات النطاقين.. أسماء بنت الصديق الأكبر، والصاحب الأبر (هاجرت إلى النبي ﷺ وهي حبلى)[1].

لم تبال بثقل حملها فمدينة الأنوار والحب تنتظرها، وهي لا تستطيع مقاومة ذلك الحب فيها، أما ذلك الجنين في بطنها فكان على موعد مع السبق والشرف، ليكون أولاً في سجلات الهجرة والإسلام.

أسماء الآن في قباء قد أثقلها الحمل والتعب.. لا تستطيع المشي، ولا تستطيع الوصول إلى المدينة، فآلام الوضع والولادة شديدة. إنها المرة الأولى التي تعاني فيها من هذه الآلام، فبقيت في قباء حتى تمت ولادتها بسلام، وطفلٍ كالورد.. تحدثنا عنه فتقول: (خرجت وأنا متم، فأتيت المدينة فنزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه. فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له وبرك عليه، فكان أول مولود في الإسلام)[2].

هذا الطفل هو عبد الله بن الزبير بن العوام، وتلك هي أمه، أما خالته عائشة التي عانت بعد وصولها من مرض تساقط منه شعرها، وأي شيء أهم عند الفتاة من شعرها ومظهرها.

تقول رضي الله عنها: (قدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمة)[3] أي أنها شفيت فعاد شعرها جميمة، وهو الشعر إذا سقط على المنكبين.

فرحت عائشة بجميمتها لا سيما وهي تنتظر...

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٩).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٢٢.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤١٤.

فهي زوج رسول الله ﷺ، لكنها كانت في بيت أبيها.. لم تنتقل بعد إلى بيت الزوجية والنبوة والحب الذي سينير حياتها وآخرتها، وتلك الحجرات الصغيرات كن يتلهفن عليها، حتى إذا جاء شهر شوال من تلك السنة. وشهر شوال محبب لدى عائشة.

إنها تقول عنه: (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني، وكانت تستحب أن تدخل نساءها في شوال)[1].

ولزفاف عائشة قصة تحب أن ترويها لنا، فتقول: (أتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحةٍ ومعي صواحب لي، فصرخت بي، فأتيتها لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه وأنا يومئذٍ بنت تسع سنين)[2].

هذه قصة زفافها، وهكذا صار لها حجرة من تلك الحجرات المتواضعة، وصار لها نصيب في حياته ﷺ وقلبه.. يزداد مع الأيام حتى صارت أحب الناس إليه. يقول أحد الصحابة واسمه عبد الله بن شقيق: (قلت لعائشة: أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟

قالت: عائشة. قلت: فمن الرجال؟ قالت: أبوها)[3].

وصحابي آخر قدم على رسول الله ﷺ فجرى بينهما حوار عن الحب. يقول هذا الصحابي رضي الله عنه: (أتيته، قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة.

قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: عمر)[4].

---

(١) صحيح مسلم ٢-١٠٣٩.
(٢) صحيح البخاري ٣٨٩٤.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٣٥٨.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤٣٥٨.

المرأة من جديد تقفز في المقدمة.. تتقدم فتسير أمام من يدخلون قلب رسول الله ﷺ، وقلب رسول الله ﷺ كان مدينةً منورةً أخرى للجميع.. سعدوا بدخولها، واطمأنوا بالعيش فيها، ومن آثار تلك الطمأنينة والحب بين المهاجرين والأنصار.. هذه الخطوات التي يخطوها حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وهو يتجه إلى أحد بيوت الأنصار.. إلى بيت قيس بن فهد.

حمزة يصاهر الأنصار

حمله حب مصاهرة الأنصار الكرام والتماهي بهم إلى يوم القيامة. خطب حمزة رضي الله عنه خولة بنت قيس، فوافقت، ووافق أبوها، وزفت إليه وسكنا معا في بيت تعمره السكينة والإيمان، فيزوره النبي ﷺ ليقضي فيه وقتا كأنسام البحر عند المساء.

خولة رضي الله عنها تتحدث عن تلك الزيارات التي كان يقوم بها النبي ﷺ لبيت عمه، وتتحدث عن عذوبته ﷺ في حديث ينقله أحد الصحابة فيقول: (أن حمزة بن عبد المطلب لما قدم المدينة تزوج خولة بنت قيس بن فهد الأنصارية من بني النجار، وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها، وكانت تحدث عنه ﷺ أحاديث قالت: جاءنا رسول الله ﷺ يوماً فقلت: يا رسول الله، بلغني عنك أنك تحدث أن لك يوم القيامة حوضاً ما بين كذا وكذا؟

قال: أجل، وأحب الناس إلى أن يروى منه قومك. قالت: فقدمت إليه برمة فيها خبزة أو حريرة، فوضع رسول الله ﷺ يده في البرمة ليأكل فاحترقت أصابعه، فقال: حس. ثم قال: ابن آدم إن أصابه البرد قال: حس.. وإن أصابه الحر قال: حس)[1].

وتقول رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ دخل على حمزة فتذاكر الدنيا فقال رسول الله ﷺ: إن الدنيا خضرة حلوة، فمن أخذها بحقها بورك له فيها. ورب متخوض في مال الله ومال رسوله له النار يوم يلقي الله)[2].

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٦-٤١٠ وغيره من طريق يحيى بن سعيد عن يحنس عنها ويحيى ويحنس ثقات التقريب ٥٨٧ وللحديث شواهد قوية عند الطبراني في الكبير ٢٤-٢٢٧.

(٢) سندة قوي رواه أحمد ٦-٣٦٤ وغيره عن يحيى بن سعيد أخبره عمر بن كثير بن أفلح سمع عبيد سنوطا عن خولة. عمر تابعي ثقة التقريب ٢-٦٢ وسنوطا وثقه العجلي ٢-١٢٢.

كان ﷺ يـزور أصحابـه أيضاً.. يتفقدهم ويتحسـس معاناتهـم، ولأنهم جميعاً بين أضلاعه ﷺ فلا بد أن يدلف معهم شـيء من الأحزان.. يشـعر بها ويشـاركهم معاناتها..

كان يتقاسـم معهم الأحـزان والأفراح، فخلال تلك البهجـة.. خلال فرح المدينة بعرس محمد ﷺ وعائشـة.. خلال الفرح بالمهاجرين والإسـلام.. كانت قافلة الحياة الطويلة تمر.. تعبر لا تتوقف.. تحمل الفرح والأحزان والمفاجآت، وقافلة الحياة تحمل هذه المرة حزناً يتأهب لدخول بيت أحد أبطال العقبة والبيعة الخالدة:

بيت أسعد بن زرارة

الذي كان في أيامة الأخيرة يعاني من المرض، فيقول أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قد كوى أسعد بن زرارة في الشوكة)[1].

لكن سعداً مات رضي الله عنه.. مات فترك جرحاً في قلوب المسلمين، وترك دعاءً في قلب الشـاعر الأنصاري (كعب بن مالك) رضي اللـه عنه. كان كعب يدعو له كلما سمع صوت المؤذن ليوم الجمعة، فلماذا هذا النداء بالذات، وما هي ذكرياته؟

الإجابـة أخذها عبد الرحمن من والده كعب بن مالك، بعد أن بلغ كعب من الكبر عتياً وشاب رأسه وذهب بصره، فيقول عبد الرحمن: إن والده (كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة. فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة؟

قـال: لأنـه أول من جمَّع بنا في هزم النبيت[2] من حرة بني بياضة، في نقيع يقال له نقيع[3] الخضمات.. قلت: كم أنتم يومئذٍ؟ قال: أربعون)[4] رحم الله أسـعد بن زرارة

---

(١) سـنده صحيح. رواه أبو يعلى ٦- ٢٧٤ وغيره عن يزيد بن زريع، عن معمر عن الزهري عن أنس... ويزيد ثقة ثبت. التقريب ٦٠١ والبقية أئمة ثقات أغنياء عن التعريف.

(٢) مكان منخفض.

(٣) يسمى هكذا لاجتماع الماء فيه.

(٤) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق ومن طريقه الحاكم (٣-١٨٧: حدثني محمد بن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف عن أبيه أبي أمامة أن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أخبره. شـيخ ابن إسـحاق ثقة ووالده اسمه: أسـعد بن سهل بن حنيف له رؤية وهو معدود في الصحابة وشـيخه من كبار التابعين وثقاتهم وكلهم من رجال التقريب.

ورضي عنه.. ربما كان هو هذا الذي فوق الأعناق.. هاهم ينزلونه إلى قبره ويدفنونه، والنبي ﷺ حزين عند قبره، وهاهم الصحابة يلفهم الوجوم، ويتسلل الحزن بينهم، ويتسلل بينهم أيضاً رجل لم يعرف الحزن هذه اللحظة فقط، بل تشربته عروقه وشبابه، فأصبح من لحمه ودمه.. حزين تصرعه الدنيا وتشقيه وتحمله وترتحل به حتى أوصلته إلى هذا القبر.

فمن هذا المتسلل؟

من هذا المتأمل بين المقابر..؟ إنه ذلك الرقيق المتسلل ليلاً إلى قباء عندما وصل رسول الله ﷺ إلى هناك. هل تذكرون تلك الصدقة التي حملها.. قدمها لرسول الله، فلم يأكل ﷺ منها، وجعل أصحابه يأكلون؟ إنه الشخص نفسه الذي حمل هدية من طعام إلى رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري.. ذلك الشخص المحير.. ذلك الرقيق المليء بالأسرار، والعبودية والهموم.. هو هذا المتسلل الذي مشى إلى رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد.. قد تبع جنازة الصحابي الجليل، وعلى رسول الله ﷺ شملتان..

لن أستمر.. سأترككم معه.. يفتح لكم قلبه ودفاتره ودروبه، ليتحدث إليكم.

يقول رضي الله عنه: (جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد[1]، قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعليه شملتان[2]، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدبرته أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي،

فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم[3] فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تحول».

فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثي)[4].

---

(١) بقيع الغرقد: هو مقبرة المدينة.

(٢) الشملة: كساء يتلفف به المرء.

(٣) خاتم النبوة.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢٩٦/١) ومن طريقه رواه أحمد (٤٤١/٥) فقال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن محمود بن لبيد، عن عبد الله بن عباس قال: حدثني سلمان الفارسي - من فيه - قال: كنت رجلاً فارسياً... =

إذاً فهذا المسكين يبحث عن نبي، وقد وجده، لكن من هو، وما هي قصته وما هو حديثه...؟

الغريب يفتح لنا دفاتره ودروبه

مرة أخرى سأترككم معه.. يحدثكم كما حدث رسول الله ﷺ.. حديثاً مبللاً بالدموع والشقاء والدلال.. حديثاً طويلاً يقول فيه: (كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية يقال لها (جيء) وكان أبي دهقان[1] قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته، كما تحبس الجارية -أي ملازم النار - واجتهدت في المجوسية[2] حتى كنت قطن[3] النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة، وكانت لأبي ضيعة[4] عظيمة، فشغل في بنيانٍ له يوماً فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطّلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس - لحبس أبي إياي في بيته - فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي، وشغلته عن أمره كله، فلما جئت قال: أي بني، أي كنت؟ ألم أكن أعهد إليك ما عهدته؟ قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في

= وهذه السلسلة من الرجال كالذهب، عاصم بن عمر بن قتادة وهو تابعي ثقة وإمام في المغازي والبقية من الصحابة رضي الله عنهم. انظر التقريب ٢٨٦.

(١) الدهقان: هو رئيس القرية أو التاجر.

(٢) المجوسية: دين يعبد أهله النار.

(٣) أي خازن النار والمعتني بها.

(٤) بساتين وأشجار وكروم.

كنيسة لهم، فأعجبني مارأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير. دينك ودين آبائك خير منه. قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا.

فخافني فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته. وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام - تجار من النصارى - فأخبروني بهم.

فقدم عليهم ركب الشام - تجار من النصارى- فجاءوني النصارى فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني.

فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟ قالوا: الأسقف[1] في الكنيسة. فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك، وأتعلم منك فأصلي معك. قال: ادخل.

فدخلت معه، فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب ووَرِق[2]. وأبغضته بغضاً شديداً لمارأيته يصنع، ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً. فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ فقلت لهم: أنا أدلكم على كنزه. قالوا: فدلنا.

فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورِقاً، فلما رأوها قالوا: لا ندفنه أبداً، فصلبوه ورجموه بالحجارة.

وجاءوا برجل آخر فوضعوه مكانه، فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه، وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً. فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله، فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة، فقلت له: إني قد كنت

---

(١) رتبة نصرانية فوق رتبة القس وتحت رتبة المطران.

(٢) الورق: الفضة.

معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه.. لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل[1] وهو فلان، وهو على ما كنتُ عليه فالحِقْ به.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت: يا فلان، إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره. فقال لي: أقم عندي.

فأقمت عنده فوجدته خير رجلٍ على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وبِمَ تأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين، وهو فلان فالحق به.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين[2]، فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي، فقال: أقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي وتأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه، إلا رجلاً بعمورية[2] من أرض الروم.. فإنه على مثل ما نحن عليه.. فإن أحببت فأته.. فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي. فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له: يافلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وبم تأمرني؟

---

(١) مدينة شمال العراق.

(١) مدينة من مدن الجزيرة.

(٢) مدينة بآسيا الصغرى (تركيا الآن).

قال: أي بني، والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين[1] بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

ثم مات وغيب، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث،ثم مر بي نفر من (كلب) - تجار - فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم.

فأعطيتهموها وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها.

وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام، ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عذق[2] لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة[3]، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباءٍ على رجلٍ قدم من مكة، يزعم أنه نبي.

فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننت أني ساقط على سيدي، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول.. ماذا تقول؟

فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا!! أقبل على عملك. فقلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال. وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته، ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء)[4].

---

(١) الحرة: أرض ذات أحجار سوداء.

(٢) العَذق - بفتح العين - النخلة بحملها.

(٣) اسم جدة الأوس والخزرج.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (ابن كثير ٢-٢٩٦) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي هو عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (التقريب ١-٣٨٥).

إذاً فرسول الله ﷺ يعرف وجه هذا الغريب، ويتذكر قصته معه في قباء.. عندما قدم لرسول الله ﷺ صدقة من طعام، فلم يأكل منها. ولكنه أكل من هديته التي قدمها له في بيت أبي أيوب، وهاهو يرى خاتم النبوة على ظهره ﷺ بعد أن دفن صاحبه.

ثلاث علامات ذاق من أجلها سلمان ألوان المر والترحال، والتغرب والتشرد.. تشققت يداه من الكد والكدح، وهو ابن النعيم والدلال.. حياة طويلة ترسف في قيود الحديد والعبودية والرق.. كان في غنى عنها، لكنه ليس في غنى عن التوحيد، ولا البحث عن الحقيقة. لأنه إن عثر عليهما سيعثر على نفسه، التي لم يجدها بين رماد نار المجوس، ولا بين تصاليب النصارى، ولا وسط أحقاد اليهود ولكماتهم.. وجدها بين يدي محمد ﷺ، فهدأت نفسه الثائرة، وارتاحت روحه المتعبة، ووجد الجدار الذي يسند إليه ظهره بعد طول العناء، والنبع الذي روى عطشه.. عثر على من يمسح دموعه وعرقه في طيبة الطيبة.. بين إخوة له في الشقاء والبحث والانتظار والوصول، فقص عليهم ما وجده وما عاناه (فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه)[1].

ولم يكتف ﷺ بإبداء الإعجاب والرضا والابتسام، فالرجل ما زال يلهث، ويداه تنزفان وقدماه داميتان من صخور اليهود وأشواك حقولهم.

رَقَّ ﷺ لحاله وضياعه فقرر كسر هذا الطوق الذي يخنق أنفاسه، فالتفت ﷺ إليه وقال: «كاتب يا سلمان»[2] أي تعاقد مع سيدك اليهودي على شيء تقدمه له مقابل حريتك.

لم يكن لدى سلمان شيءٌ يقدمه، لكن كلمات النبي ﷺ كانت نوافذَ مفتوحةً على الحرية والحرية. نهض سلمان من بين المقابر، وتوجه إلى ذلك اليهودي.. نهض سلمان وقد انتزع القلوب من حوله، وغادر ونظرات الإشفاق والعطف تتابعه حتى اختفى، ونهض النبي ﷺ وأصحابه وقد أثقلهم الحزن على صاحبيهم. ولم يكتفِ ﷺ بالحزن على صاحبه الذي دفنه منذ قليل، فأسعد بن زرارة ملء السمع والبصر، وعائلته من بعده أصبحت بين حناياه ﷺ.

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ٦٦ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود ابن لبيد عن بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي.

(٢) سنده صحيح. وهو الحديث السابق.

رحل أسعد بن زرارة وترك زهرتين صغيرتين.. هاهو ﷺ يمشي متوجهاً نحوهما في دار أبيهما أسعد. نبي الله ﷺ يحمل في يده هدية جميلة لهاتين الصغيرتين، إنها أقـراط ذهبية مرصعة باللؤلؤ، وليس هناك ما يدخل السـعادة على الفتاة مثل الحلي والزينة.

تحدثنا عن هذه الزيارة حفيدة لأسـعد بن زرارة اسمها زينب فتقول: (إن رسول الله ﷺ حلى أمها وخالتها - وكان أبوهما أسـعد بن زرارة - أوصى بهما إلى رسـول الله ﷺ، فحلاهما رعاثاً من تبر ذهب فيه لؤلؤ)[1].

لبسـت الفتاتان تلك الأقراط وتزينتا به، وبقي عندهمـا زمناً لدرجة تقول معها زينب: (وقد أدركت الحلي أو بعضه)[2].

هدية من نبي رقيق المشاعر.. يحاول تخفيف اليتم والحزن عن أهل بيت من بيوت الأنصار الكريمة التي تستحق الكثير.

غادر عليه السـلام بيت اليتيمتين، وبعد أيام عاد الغريب.. عاد سـلمان الفارسي إلى رسـول الله ﷺ ليقول له: (كاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة، أحييها له بالقفير وأربعين أوقية)[3].

فرح ﷺ بما سمع، وهتف بأصحابه من حوله وقال لهم: «أعينوا أخاكم»[4] فامتثل الصحابـة وتفرقوا يبحثون.. يفتشـون عن شـيء يزيلون به بقايا المعانـاة عن أخيهم الفارسـي، الذي تداولته السنون والشقاء و(تداوله بضعة عشر من رب إلى رب)[5] وقد آن الأوان أن يستريح بفيء الإسلام.

---

(١) سنده حسن. رواه الحاكم ٣-١٨٧ من طريق محمد بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن محمد بن عمارة، عن زينب بنت نبيط. وهي زوجة أنس بن مالك، التهذيب ٩-٣٥٩ وتلميذها صدوق يخطىء وحديثه حسن التقريب ٤٩٨ وحاتم حسن الحديث من رجالهما وقتيبة ثقة ثبت التقريب ٤٥٤ وتلميذ ثقة من شيوخ البخاري.

(٢) سنده حسن. رواه الحاكم (١٨٧/٣) وهو جزء من الحديث السابق.

(٣) هو بقية حديث سلمان الطويل الصحيح.

(٤) هو بقية حديث سلمان الطويل الصحيح.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ٣٩٤٦.

الصحابة اليوم حركة وعطاء إلا كبيرهم إلا أولهم.. إنه ليس في السوق، وليس مع رسول الله ﷺ الذي يعود إلى بيته فيجد زوجته عائشة رضي الله عنها بانتظاره، وهي قلقة على أبيها.

كانت تنتظر زوجها ﷺ لتستأذنه في الذهاب للاطمئنان على أبيها، فمالذي حدث للصديق الأكبر..؟ ماذا حدث لحبيبنا أبي بكر رضي الله عنه؟

ماذا حدث لأبي بكر

لم يكن أبو بكر وحده يحتاج إلى الرعاية والمواساة.. بلال بن رباح كان مثله، وعامر بن فهيرة أيضاً، فقد (كانوا في بيت واحد)[1].

وصل الخبر إلى عائشة فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم، وعندما وصلت وجدت حمى المدينة الملتهبة تشتعل في أجسادهم، وحمى المدينة شديدة فلقد (قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أوبأ أرض الله)[2]، لكن الله يجعل من الضيق منافذاً وأبواباً، ويجعل من المعاناة بشائراً ووعوداً. قال ﷺ لأصحابه: «لا يصبر على لأواء المدينة وجهدها أحد، إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً»[3]. ويقول لهم: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»[3] وما دامت الحمى من القدر، فعلاجها من القدر أيضاً، فالقدر يعالج بالقدر.

أرشد ﷺ أصحابه إلى الصبر، وأرشدهم أيضاً إلى العلاج فقال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»[3].. «الحمى كير من جهنم فنحوها عنكم بالماء البارد»[3].

هذه هي حال الحمى فكيف كانت حال أبي بكر وصاحبيه رضي الله عنهم؟ لقد كانوا مزيجاً من:

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق حدثني هشام بن عروة وعمر بن عبد الله بن عروة عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها - انظر ما بعده.

(٢) سنده رواه البيهقي ٢-٥٦٧: الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. الأصم إمام وثقة معروف وسماع شيخه للسيرة صحيح، ويونس أحد رواه السيرة وهو حسن الحديث. والبقية أئمة ثقات.

(٣) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.